المحاضرة الرابعة

قضايا أدب الطفل

1- مفهوم القضية:

تعددت معاني لفظ (القضية) في القرآن الكريم في كثير من المواضع بلفظ الفعل في عمومها في نحو ستين موضعا نصطفي منها ما دل على الحُكم في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾[1]. والحال ذاته في المعاجم العربية مع تقارب في أصولها، ولا يمكن الإحاطة بها لتشعبها، ونختصر معناها اللغوي في: "قضى يقضي قضاء وقضيا وقضية بين الخصمين: حكم وفصل. وقضى الأمر له وعليه: حكم به له أو عليه وواجبه وألزمه به. وقضى الشيء أعلمه وبيّنه"[2] وهو مقال هذا المقام، ومن ثمّ يمكننا القول، أنّ القضية مصطلح ينعت به أي خلاف يتكون من مجموعة مشكلات متداخلة ومتفاعلة مع بعضها قد يصعب احتواؤها؛ لأنها في أساسها تمس أطراف متعدّدة، وبذلك تختلف وجهات النظر حولها، فيبرز فيها الإيجابي والسلبي، والمركزي والثانوي؛ وحتى المفتعل، وتتعدد جوانبها بين السياسي والاجتماعي والتاريخي والاقتصادي، وغيرها، ولكنها في ظل كل ذلك تحتاج إلى حلّ وفصل لوضعها القائم.

2- قضايا أدب الطفل:

إن البحث في قضايا أدب الطفل لا يزال بكرا، ولم تحظ هذه القضايا على كثرتها وتنوعها بالاهتمام الكافي على ساحة المشهد الثقافي للطفل، وبخاصة في العالم العربي، وفي ضوء ذلك سنقدم اجتهادات مختصرة لما رأيناه مهما من القضايا التي تحتاج إلى الإعراب والتوضيح بما يتلاءم مع مستوى المتلقي.

أ- قضية المصطلح والتسمية:

يحتاج مصطلح (أدب الطفل) على مستوى التسمية إلى مساءلة؛ لتعدّد تسمياته تنظيرا ونقدا، وقد أهمل النقاد هذه القضية، إما تجنبا للمغامرة وعدم الخوض فيها واعتبروها مشكلة جدلية، أو خوفا من الوقوع في شرك الاضطراب، أو أنّ تعدد التسمية لا شبهة فيه، والحقيقة أنّ كثيرا من الاصطلاحات تحيد عن الدلالة العامة لهذا المصطلح.

إن فوضى التسميات تحيلنا إلى بساط الاختلاف الذي يحتاج إلى دراسة موسعة في

---

[1]- سورة النساء: الآية:65.

[2]- لويس معلوف: المنجد في اللغة والأعلام، ص: 636.

غير هذا الموضع، فكثير من الكتاب تفارقوا عن بعضهم في كتاباتهم للأطفال في تسمية مؤلفاتهم، فمنهم من نسب هذا الأدب للأطفال مباشرة على صيغة الجمع (أدب الأطفال)[1] وهو الأكثر شيوعا، ومنهم من نسبه إلى الطفل بصيغة المفرد (أدب الطفل)[2]، والفرق ليس كبيرا بين التسميتين لأن كلمة الطفل تطلق على المفرد والجمع، وهناك من وسم هذا الأدب بـ(أدب الطفولة)[3] والطفولة ليست هي الأطفال، فالطفل كائن صغير، والطفولة مجموعة مراحل زمنية يعيشها الطفل. فكيف ينسب الأدب إلى مرحلة زمنية؟ والأصح المواءمة بين الأدب والمرحلة الزمنية للطفل.

ومن المنظرين من جمع بين الأدب والثقافة وطابق بينهما[4]، وكأنهم "لا يميزون بين مدلول أدب الأطفال، ومدلول ثقافة الأطفال، لذلك نجدهم يقعون في بعض الأخطاء الجسيمة"[5] كما سنبين لاحقا، والأدهى من ذلك أن يطابق أحدهم بين أدب الأطفال وأحد فنونه على غرار: (دراسات في أدب ومسرح الأطفال) لمحمود بري العواني، دون تمحيص، فضلا عن بعض التسميات الغريبة المستوردة من العلوم الإنسانية، والموضوعة في سلة أدب الطفل، وتحيل المتأمل فيها على حالة من الإيهام والخداع مثل: صحافة الأطفال، كتاب الأطفال، صحة الأطفال، السينما والطفل، رعاية الطفل...وغيرها من التسميات التي لا علاقة لها بأدب الطفل على مستوى مضمونها في عمومها.

وعليه وجب توحيد التسمية، وإن كنت كدارس لهذا النوع من الأدب أرفض حتى تسميته بأدب الطفل؛ لأنه سيحيلنا على قضية أخرى مؤقّلة على مستوى الكتابة والتلقي والإنتاج.

وحتى نتجاوز قضية التسمية (أدب الأطفال) وما تحيل عليه من معاني ودلالات قد توقعنا كدارسين وباحثين في شرك الجدل، نقترح فصل حدي المصطلح بعبارة (الموجّه) ليصبح (**الأدب الموجّه للأطفال**) وهي التسمية الأصح، أو نسبته إلى أحد فنونه وإلحاقه

---

[1]– أحمد نجيب، ربحي مصطفى عليان، كمال الدين حسين، عبد الإله عبد الوهاب العروادي، هدى قناوي، عبد المعطي نمر موسى، نجلاء محمد على أحمد، عبد الفتاح أبو معال، إسماعيل عبد الفتاح، سمير عبد الوهاب أحمد، محمد حسن إسماعيل، علي الحديدي...

[2]– أحمد مبارك سالم، أحمد زلط في مؤلفين، حسن شحاتة، عبير النوايسة، منيرة صالح، أحمد عبده عوض..

[3]– أحمد زلط في مؤلفين، أحمد علي كنعان...

[4] – محمد السيد حلاوة، سمير روحي الفيصل، مفتاح محمد دياب...

[5]– فاضل الكعبي: كيف نقرأ أدب الأطفال، ط1، مؤسسة الوراق، الأردن، 2012، ص: 49.

بالطفل أو الأطفال، وقد تبنى هذا الاتجاه كثير من الباحثين والنقاد[1].

ب- قضية الكتابة للطفل (من يكتب لمن؟):

إن مصطلح (أدب الأطفال) يشير وفق ما هو متعارف عليه إلى الأدب الذي يوجه للأطفال من قبل الكبار، ولكنه في واقع استعماله ودلالته اللغوية مثله مثل مصطلحات فنية أخرى: (أدب المرأة، أدب الشباب...) يشير إلى الأدب الذي ينتجه الأطفال بأنفسهم قياسا على الإيحاء الشكلي للمصطلح، وقد استدل أصحاب اتجاه أن أدب الأطفال هو ما ينتجه الأطفال بأنفسهم بأسماء وشواهد[2] عديدة على مستوى الأدب العالمي والعربي قديمه وحديثه، والحقيقة أن هذه الأسماء والشواهد تحيل على النبوغ المبكر في الكتابة، وليس بالضرورة صلاحية ما كتبت ونظمت للأطفال؛ ففي حقيقة الأمر "أن هذا المستوى في الإنتاج الأدبي الذي يقدمه طفل صاحب موهبة كبيرة، لا علاقة له بالأطفال، ولا يخاطب تجاربهم، أو وعيهم الطفولي؛ لأنه في مستوى من الرؤية والتشكيل أعلى بكثير مما يتوافرون عليه"[3] وقضية الطفل الكاتب للأطفال تجافي التقويم الموضوعي؛ والأبعاد التربوية والتعليمية للكتابة.

وعلى ذلك لا يمكن إدخال ما ينتجه الطفل ضمن ما يوصف بأدب الأطفال؛ بمعنى أنّ أدب الأطفال يتجه من الكبار إلى الأطفال؛ لأن الكبار هم الذين بإمكانهم تحقيق شروطه وخصائصه وتلاؤمه مع مراحل الطفولة المختلفة باستعمال الخبرات التربوية والنفسية والمهارات الفنية واللغوية؛ أي أن "الكبار هم الذين يصنعون (أدب الأطفال) لكن الصغار هم الذين يصنعون له الخلود"[4] فصناعة هذا الأدب على مستوى الإنتاج تكون من الكبير، باعتباره مرسِل، ويتلقاه الطفل باعتباره مستقبِل، فقد تترصع رسالة الكبير إلى الصغير باللآلئ المضيئة ويكتب لها الخلود على مر الزمن، بفعل القراءة التي تحق الفائدة للطفل، وقد تُقبر إذا كانت غثا لا يسمن من جوع. فالقراءة هي المحدّد الأصلح للرسالة أو النص الأدبي الأفضل.

---

[1]- سعد أبو الرض: النص الأدبي للأطفال/ العيد جلولي: النص الشعري الموجه للأطفال في الجزائر/ فضل شبلول: جماليات النص الشعري للأطفال/ محمد السيد حلاوة: الأدب القصصي للطفل...

[2]- لبيد العامري، طرفة بن العبد، أبو القاسم الشابي، رامبو Arthur Rimbaud، إليوت T.S.Eliot.... للتوسع ينظر، فاضل الكعبي: كيف نقرأ أدب الأطفال، ص:61.

[3]- حداد علي: اليد والبرعم، دراسات في أدب الطفل، ص:32.

[4]- علي الحديدي: في أدب الأطفال، ص:61.

ج- قضية الثقافة والأدب وتعدد المفاهيم:

لقد صور لنا بعض الدارسين أنّ كل أشكال المعرفة المكتوبة للطفل، وتلك التي يتمظهر الطفل فيها كصورة جميلة هي أدب له، حيث تصف عبير النوايسة أدب الطفل بأنه "كل ما يكتب للطفل، وعنه في آن واحد، وفي مختلف فروع الثقافة الإنسانية، كالمجلات والمسرح والأغاني وغيرها"[1] وفروع المعرفة سنجدها مبثوثة في الكتب المدرسية، بما تضمنته من كتابات للطفل وعنه، بالإضافة إلى ما يبث في وسائل الإعلام السمعية والبصرية، وهو وصف في الحقيقة يُحمّل أدب الطفل أكثر مما يحتمل كمفهوم؛ لأن كل ما يكتب للطفل أو عنه من مواضيع ومعارف إنسانية مختلفة في مجالات متعددة الاهتمامات، يجعل أدب الطفل في مصاف ثقافة الطفل، وهذان المصطلحان(أدب الطفل، ثقافة الطفل) ليسا وجهين لعملة واحدة، وإن كان الحديث عنهما ليس مقطوعا بينهما؛ فأدب الطفل جزء من ثقافة الطفل وأحد عناصرها الأساسية، فهو كالغصن من شجرتها.

وطابقت الباحثة هيفاء شرايحة بين المصطلحين صراحة وجعلتهما في ذات مقام، في قولها: "فإذا كانت ثقافة الأطفال تعني الكتب والمجلات والمقالات التي يقرؤونها، والأفلام والمسارح التي يشاهدونها والأغاني الخاصة بهم، فهذا هو المقصود بأدب الأطفال"[2]. ففي هذا القول ظلم حتى للثقافة الطفلية نفسها، ولا يمكن بأي حال الجمع بينهما، فقد نتجاوز أدبية الأدب؛ إلى حقول معرفية أخرى تتضمنها الكتب والمجلات والمقالات، كالرياضيات والفيزياء وعلوم الطبيعة وغيرها؛ وتفاعل الطفل مع هذه العلوم ليس هو نفسه تفاعله مع أدبه الخاص به. وهذا ما يؤكده أحمد زلط في قوله: "...أما إقحام الكتّاب للإنتاج المعرفي (تاريخي أو ثقافي أو علمي) إلى أدبيات الطفل يعدّ هدما للمفهوم اللغوي والاصطلاحي لأدب الأطفال"[3] إذ حصر مضمون أدب الأطفال ومفهومه في دائرتي الشعر والنثر.

وعلى ذلك يمكننا القول أن الأدب شكل والثقافة محتوى، وأدب الأطفال بصورة أساسية

---

[1]- عبير النوايسة: أدب الطفل في الأردن- الشكل والمضمون- ص:12.

[2]- هيفاء شرايحة: أدب الأطفال ومكتباتهم، ط3، دار المكتبات والوثائق الوطنية، عمّان، 1983، ص: 11.

[3]- أحمد زلط: أدب الطفولة – أصوله، مفاهيمه، رواده- ط2، الشركة العربية للنشر، مصر، 1994، ص: 41.

هو "جزء من عملية تثقيف الطفل، هذه العملية التي لا ينهض بأعبائها النتاج الأدبي، وإنما هي تقوم على عاتق مؤسسات اجتماعية وتربوية أهمها وأولها الأسرة، والمدرسة ووسائل الاتصال المختلفة التي تحمل فيما تحمله ثقافة موجهة للطفل يكون الأدب أحد عناصرها"[1] فقد يكون الأدب حاملا لروافد الثقافة الموجهة للأطفال، وناقلا لها، ولكنه دونها في المفهوم، وفي اتصاله بالنفس، وبذلك يصبح أدب الأطفال وسيطا للتعبير عن الثقافة، ودعامة مهمة من دعائم ثقافة الأطفال، وليس الثقافة نفسها.

د- قضية نقد أدب الطفل:

من القضايا ذات الأهمية قضية نقد أدب الأطفال؛ لأننا في العالم العربي خاصة، لم نتجاوز عملية النشر والتحقيب لها، وبالكاد قدمنا مراجعات مرتبطة بتقديم الكتاب، وأهملنا المضامين والأشكال والمعايير، ولم نحدّد صفة الناقد في أدب الأطفال: هل هو الطفل؟ هل هو الكبير؟ وإذا كان هذا الأخير: فلمن يوجه نقده؟ أيوجهه للطفل أم للمبدع؟ وهذه الأسئلة الإشكالية، وغيرها تطرح قضية عميقة للمناقشة والتحليل.

إن وظيفة الناقد في أدب الأطفال، تختلف عن وظيفة الناقد في تفسير وتأويل الأعمال الابداعية الموجهة للراشدين، فالطفل في حقيقة الأمر غير معني بالنقد، إلا في حدود تطوره المعرفي والإدراكي الذي يمكنه من تمييز ما يلائمه عن طريق تحليل المضمون، وعادة ما ينوب عن الطفل معلمه أو وليه، وأيضا الطفل غير معني بتلقي النقد؛ لأنه يحتاج إلى المرافقة والتوجيه المستمر للوصول إلى اتخاذ بعض القرارات. وبانتفاء صفة الطفل الكاتب للأطفال، تنتفي صفة النقد عن الطفل للأدب الموجه له، وبالتالي يصبح متلقيا لأدبه لا ناقدا له، إلا من أسعفته الموهبة وكانت له سُهمة في إصدار أحكام قيّمة، واكتشاف أشياء قد لا تكون منطقية من وجهة نظره؛ مما يستدعي رعاية هذه الموهبة وتطويرها.

إن مهمة النقد في الأدب الموجه للأطفال يتولاها الراشد ويوجّهها للكتاب والمبدعين؛ ليضعوا نصب أعينهم أن الطفل "يحتاج إلى خطاب ثقافي نتواصل به معه، بشكل مخالف لأساليب التواصل مع الراشدين"[2] وفق معايير يمكن من خلالها الحكم على هذا الخطاب،

---

[1]- إسماعيل الملحم: كيف نعتني بالطفل وأدبه، ط1، دار علاء، دمشق، 1994، ص: 06.

[2] - كمال الدين حسين: أدب الأطفال، المفاهيم-الأشكال-التطبيق، ط2، دار العالم العربي، القاهرة، 2010، ص:40.

مع مراعاة تحولاته ومركباته التصميمية والسردية والفنّية، وقيمه الجمالية، وهذه المعايير نوجزها في الآتي[1]:

- التأكيد على الثوابت الدينية الصحيحة وتبسيط المستجدات المعرفية مع إعلاء القيم العليا كالوطنية والانتماء في أساليب فنية حكيمة، والابتعاد عن التلقين المباشر.
- الابتعاد عن التلقين اللغوي أو الاستعمال القاموسي للغة.
- الابتعاد عن التعقيد الفني البلاغي في بناء الجمل أو رسم الصور الشعرية، أو التعقيد الدرامي المتعدد.
- الابتعاد عن إغراق الطفل بالأساطير الخرافية غير الهادفة وغير المنظمة.
- الابتعاد عن الاستطراد، أو استعمال البحور الطويلة والإيقاعات الرتيبة غير المنغومة.
- الابتعاد عن بث العنصرية (الدينية والعرقية والمذهبية) في محتوى النصوص الأدبية.
- مراعاة التعبير الفني المناسب – وفقا لخصائص كل مرحلة عمرية – وكذلك مراعاة حجم ومقاس الحروف أو درجة الألوان الطباعية في كافة المواد المطبوعة للطفل.

ونشير إلى بعض سمات الكاتب الواجب الاستناد إليها أثناء التقييم والنقد[2]:

- الموهبة في الإبداع والابتكار.
- معرفة جيدة بعلم نفس الأطفال.
- معرفة جيدة بالتربويات.
- قدرات متميزة في الجنس الأدبي الذي يكتب فيه.

[1]– أحمد زلط: في أدب الطفل المعاصر– قضاياه واتجاهه ونقده– ط1، هبة النيل العربية، القاهرة، 2005، ص: 21.

[2]– هيثم يحي الخواجة: كتاب الأطفال في الإمارات – التجربة والآفاق– مجلة الطفولة والتنمية، العدد: 32، المجلس العربي للطفولة والتنمية، القاهرة، 2018، ص: 135.